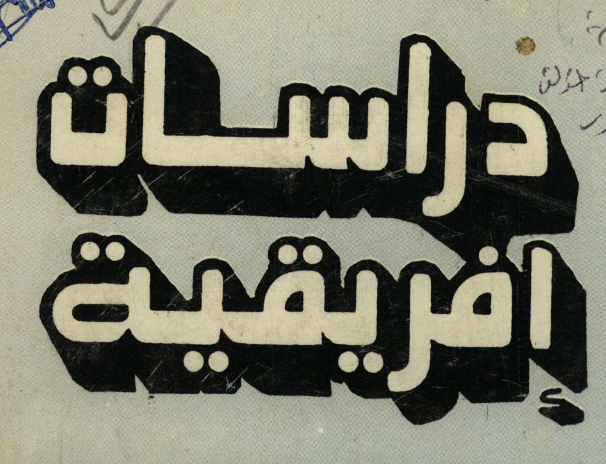




مركز البحوث والترجمة

مجلة بحوث نصف سنوية

في هذا العدد:

العدد العاشر ديسمبر ١٩٩٣م جمادى ١٤١٤ هـ

العلاقات العمانية الإفريقية والتنافس الاستعماري في عهد السلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦)

الدكتور عبد الماجد يوسف أبو سبيب *

المناطق الساحلية في إفريقيا وخصوصا الساحل الشرقي ، ارتبطت ، منذ القدم ، بصلات وثيقة مع مناطق الشرق الأوسط والشرق الأقصى . وغدت مراكزها التجارية مناطق إشعاع حضاري لفترات طويلة : ولعل سكان شبه الجزيرة العربية ، الجنوبيين منهم والشرقيين ونعني أهل " اليمن وعمان والخليج العربي " كانوا أكثر الشعوب احتكاكا بتلك المنطقة ، وهم الذين ينسب إليهم إنشاء المراكز الحضرية في الساحل الشرقي الإفريقي ، حيث أقامت فيها ، عبر التاريخ ، منهم جاليات كبيرة . وقد بدأ أهل الخليج ، خاصة بعد النهضة الاقتصادية والاجتماعية ، التي عمتهم يهتمون بتوثيق ودراسة علاقات الخليج وجنوب الجزيرة العربية بالساحل الشرقي لإفريقيا . وقد اهتمت حكومتا "أبوظبي وعمان" بشكل خاص بجمع وتصوير وحفظ أعداد هائلة من الوثائق المتصلة بالخليج العربي وعلاقتة الدولية ويحتفظ مركز الوثائق في "أبوظبي" حالياً بمجموعات هائلة من الوثائق التي كانت تحتفظ بها دور الوثائق في بريطانيا ، مثل وثائق الهند (INDIA OF-FICE RECORDS) وغيرها من مراكز الوثائق الأوربية الخاصة في البرتغال وإسبانيا ، بالإضافة لتصوير مجموعات كبيرة من وثائق مركز وثائق بومبي ومركز وثائق زنجبار الوطني ، إضافة إلي ما قامت به وزارة التراث القومي للثقافة العمانية من مجهودات

---

* رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الخرطوم .

كبيرة من الإرث التاريخي للإمبراطورية العمانية . وكل ذلك سيسهم بلا شك في تعميق وإيضاح العديد من الجوانب الغامضة في علاقات سكان الجزيرة العربية بالسواحل الشرقية لإفريقيا . وقد رأيت أن أتعرض في هذا المقال لبعض جوانب علاقة الخليج العربي بالساحل الشرقي لإفريقيا ، وبصفة خاصة علاقات عمان بإفريقيا الشرقية في عهد السلطان سعيد بن سلطان والصراع الدولي الذي شهده القرن التاسع عشر حول الإمبراطورية العمانية .

شكل الخليج العربي ، منذفجر التاريخ ، شرياناً حيوياً للاتصال بين شعوب وادي الرافدين وبلاد فارس من جهة ، وبلدان الشرق الأقصى وإفريقيا من جهة أخري . فقد كان البحارة الخليجيون والعمانيون يجوبون البحار ومسالكها سعياً وراء التبادل التجاري والاتصال بالشعوب . وقد كان البحارة العمانيون أكثرهم شهرة ، فقد أصبحت مغامراتهم وأسفارهم مثلاً يحتذي في الإقدام والجرأة ، ذلك أن عمان تقع علي ملتقي طرق بحرية هامة تربطها بالخليج العربي والهند والبحر الأحمر وشرق إفريقيا ، وتحتل مركزاً استراتيجياً هاماً . وكانت الرياح الموسمية عاملاً مهماً لتوجيه السفن الشراعية آنذاك وقد عرف العرب الخليجيون ، خواص تلك الرياح ومواعيد هبوبها . واستفادوا منها فائدة كبيرة . وورد في أدبهم أن الرياح الموسمية التي تهب من الشمال الشرقي إلي الجنوب الغربي في الشتاء هي (الصبا) وتلك التي تهب من الجنوب الغربي إلي الشمال الشرقي صيفاً هي (الدبور) (١)

وكان موعد السفر من مياه الخليج إلي الجنوب الغربي ، تجاه اليمن والبحر الأحمر وشرق إفريقيا ، يكون بين شهري اكتوبر ومارس حيث تهب الرياح الموسميةمن الشمال الشرقي (٢) .

وقد لعب الخليجيون دوراً كبيراً جداً في نقل منتجات شرق إفريقيا إلي مناطق شبه الجزيرة العربية والعراق وفارس ، حيث كانت تلك الواردات تلقي إقبالاً كبيراً ، وكذلك لعبوا نفس الدور في نقل بضائع الشرق إلي ساحل إفريقيا الشرقي ويرجع العلماء أن العمليات

التجارية كانت تتم حسب نظام المقايضة في الفترة التي سبقت تكوين المراكز الساحلية وازدياد الهجرات العربية إلي ساحل إفريقيا الشرقي ، ذلك أن السكان الأفارقة كانوا في معظمهم من قبائل البانتو ولم يكونوا قد عرفوا صك العملات في هذه الفترة المبكرة (٣) .

كانت أهم المنتجات التي يستوردها العرب من شرق إفريقيا ، الأخشاب والتوابل وسن الفيل وجلود الحيوانات وخاصة النمور والفهود . وكان الذهب كذلك من أهم وارداتهم ، حيث تشير المصادر إلي أن العرب وجدوا طريقهم منذ فترة مبكرة إلي مناطق إنتاج الذهب في المناطق التي عرفت بروديسيا (زمبابوي ، زامبيا حالياً) عبر ميناء سفالة (٤) .

وفوق هذا كان الساحل الشرقي مورداً فياضاً لسلع أخرى وكان التجار الخليجيون يستبدلون السلع المذكورة بالمنسوجات والخرز والأرز والملح والسمك المجفف (٥) .

وقد انتقلت من خلال تلك الصلات بين شعوب الخليج وجنوب الجزيرة العربية وشعوب الساحل الشرقي لإفريقيا ألوان من الثقافات والعادات والتقاليد التي لا يزال أثرها قوياً واضحاً في ثقافة وعادات وطباع أهل الخليج حتي يومنا هذا .

مرت صلات سكان جنوب الجزيرة العربية والخليج بالساحل الشرقي لإفريقيا بمراحل متعددة يمكن أن نوجزها في المراحل التالية :-

(أ) مرحلة ماقبل الإسلام .

(ب) الفترة الإسلامية .

(ج) الفترة الشيرازية

(د) الفترة العمانية .

وقد تخللت الفترة الشيرازية وفترة الهيمنة العمانية فترة الوجود البرتغالي في المنطقة .

المعلومات التاريخية عن الفترة الأولى - ماقبل الإسلام - شحيحة إلا أنه وكما أسلفنا ، فإن صلات أهل الخليج وعمان واليمن بالسواحل الشرقية لإفريقيا ، تعود جذورها الى مراحل متقدمة من التاريخ وتشير المصادر المكتوبة والتى تعود إلى سنة ٦٠ للميلا د إلي

أن عرب الجزيرة وخاصة عرب موزا (مدينة مخارف فى اليمن) كانو يتاجرون ويستقرون على السواحل الشرقية لإفريقيا (٦) كما أن وجود العنصر الإفريقى فى مجتمع ماقبل الإسلام فى الجزيرة العربية لايحتاج إلى تدليل .

غير أن الهجرات العربية الكبيرة للساحل الشرقى لإفريقيا تمت فى فترة مابعد نزول الرسالة المحمدية ، حيث استقرت مجموعات من عرب الخليج وحضرموت على طول الساحل الشرقى لإفريقيا كتجار ودعاة وكلاجئين سياسيين فى أحيان أخرى .

ولعل أول أشارة لذلك ماأورده المؤرخون العرب العمانيون من أمثال نور الدين السالمى وغيره ، ونقله عنهم المؤرخون الأجانب عن نزوح آل الجلندى حكام عمان إلى ساحل الزنج أثر الحملة التى شنها على عمان الحجاج بن يوسف الثقفى والى عبد الملك بن مروان على العراق . والتى فر على إثرها الأخوان سليمان وسعيد أبناء عباد وأحفاد عبد الجلندى من قبيلة الأزد العربية ، إلى الساحل الشرقى لإفريقيا . وقد أ خذ الأخوان معهما فيما تقول الرواية أعداداً كبيرة من أفراد قبيلتهما ، وكان ذلك فى حوالى العام ٦٩٥ للميلاد ، أى بعد عام من تولى الحجاج عمالة العراق . وتشير العديد من المراجع الى هذا (بحسبانه مهما فى التأريخ) لصلة العمانيين بالساحل الشرقى لإفريقيا ، حيث لم يكن لجوء حاكمى عمان مع أتباعهما إلى ساحل إفريقيا ، إلا تأكيداً لصلة عمان الممتدة بذلك الساحل ومعرفتهم الطويلة به (٧) .

ويورد بعض المؤرخين الأوربيين أن سكان مدن الساحل ، ينسبون تأسيس مدن باتى ومالندى وزنجبار وممباسا وكلوة للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٨) .

وتنسب نفس المصادر الى ابنه حمزة أسلمة الساحل . كما أن هناك أسطورة رائجة فى تراث شرق إفريقيا عن استقرار جعفر الابن الثانى لعبد الملكبن مروان ، وحكمه للساحل إلى أن توفى فى عهد والده (٩) .

والراجح عندنا أن مثل هذه الرؤيات والأساطير ، تؤكد الدور الهام الذى لعبه المهاجرون العرب خاصة العمانيون من قبيلة الأزدوقبيلة الحرث فى تاريخ الساحل الشرقى لإفريقيا .

وقبيلة الحرث هى القبيلة العمانية الثانية التى استقرت فى أعداد كبيرة فى ساحل إفريقيا الشرقى فى بداية القرن العاشر الميلادى . وينسب إليها تأسيس مدن مقديشو وبراوة (براقا) فى الفترة ٩١٥ إلى ٩٢٤ للميلاد (١٠) أما مدينة كلوة والتى تنسب تأسيسها بعض المصادر أيضا لقبيلة الحرث العمانية ، فقد تأسست حسب أرجح الروايات فى حوالى عام ٩٦٠ على يد المسلمين الشيرازيين (١١) .

ومن الهجرات العربية التى حدثت فى هذه الفترة أيضا ، هجرة أتباع الإمام زين العابدين بن الحسين بن على (رضى الله عنه) إثر الإنشقاق الذى حدث فى أواسط الشيعة فقد انتقلت ، كنتيجة له ، أعداد منهم إلى الساحل الشرقى لإفريقيا ربما فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، فى حوالى عام ٧٣٩ للميلاد (١٢) .

غير أن ضعف المذهب الشيعى ، بل انعدام وجوده فى بعض أجزاء الساحل الشرقى الإفريقى ، يلقى كثيرا من الشكوك حول هجرة شيعيه كبيرة ، ويمكن أن ينطبق نفس الشىء على ماذكرته المصادر من إرسال الخليفة هارون الرشيد أعداداً من الفرس إلي ساحل إفريقيا الشرقى فى حوالى عام ٨٠٠ للميلاد (١٣) .

ومن الهجرات الكبيرة الأخرى التى يذكرها المؤرخون ، هجرة الشيرازيين بقيادة الأمير على ابن السلطان حسن سلطان شيراز ، فى القرن العاشر الميلادى وقد استقر الأمير الشيرازى حسب أحدى الروايات ، فى جزيرة كلوة التى ابتاعها من زعيم قبيلة المولى . وتفرق إخوانه الستة فى بقية مدن الساحل . (١٤) ويورد صاحب كتاب "السلوه فى أخبار كلوة "رواية طريفة حول هجرة الشيرازيين فحواها أن سلطان شيراز حسن بن على ، رأى فى نومه فأرة خرطومها من حديد ، وهى تقرض الجدران بخرطومها فتفاءل (تشاءم) بذلك على خراب ديارهم فقرر ترك شيراز والرحيل عنها دون إشعار سكانها بالخراب الذى سيعم ديارهم ، واتفق مع أبناءه الستة ، على التحايل على الرحيل بأن يجمع السلطان حاشيته ووزراءه وأبنائه ويتعمد أن يغلظ القول لإبنه الأكبر وأن يتصنع الابن الغضب ويلطم والده ثم يقرر الوالد النزوح لعدم استطاعته الإقامة فى بلد أصابه فيها مثل ذلك الضيم

فنزح الجميع بعد تنفيذ الحيلة فى مراكب سبعة ، كل واحد من الأبناء مع جزء من الحاشية فوصلوا إلى الساحل الشرقى لإفريقيا ، حيث تفرقوا على مدنه المختلفة(١٥) .

ثم ساق المؤلف رواية أخرى ، حول شراء أحد الإخوة شبه جزيرة كلوة من أحد زعماء الزنوج ، وبعد أن تم البيع ، خشى المشترى أن يعود الرجل للاستيلاء عليها مرة أخرى ، فما كان منه إلا أن حفر أرض المنطقة الواصلة بين الجزيرة والساحل . وبذلك أصبحت كلوة جزيرة تامة محصنة من غدر الزنوج (١٦) .

والرواية فى جزئها الأساسى ، مأخوذة عن مخطوط " الشيخ محيى الدين"المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى (١٧) ومزجها المؤلف بخياله بقصة نزوح ملك اليمن ، عمرو ابن عامر بن ماء السماء وأبنائه قبيل انهيار سد مارب وتشتت أبنائه فى البلدان بعد تركهم اليمن . كما أن قصة تحول كلوة من شبه جزيرة إلي جزيرة كاملة قصة يصعب تصديقها، فإن الصنعة فى الرواية كلها واضحة غير أن الشاهد هو أن الشيرازيين كانوا مجموعة نزحت من بلاد فارس وتمكنت من السيطرة فى بداية القرن العاشر الميلادى على منطقة كلوة وجزر القمر وممبسا وكان على بن الحسين ، هو أول حكامهم . وانتقلت السيطرة بذلك على مدن الساحل ، من العنصر العمانى والخليجى إلى العناصر الوافدة من بلاد فارس غير أن سيطرة الشيرازيين لم تستمر طويلا ، إذ دخل أبناء وأحفاد على بن الحسين فى صراع مرير حول السلطة ، انتهى بأن آلت السلطة فى كلوة ، إلى حكم عائلة أبى المواهب، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ولاتشير المصادر الى أصل بيت أبى المواهب "ويغلب على الظن أنه بيت فارسى وقد ذكر صاحب السلوة فى أخبار كلوة" أن الحسن بن طالوت - أول حكام هذا البيت ، قد أخذ الملك بالغلبة . ولكنهم ضعفوا عن الأمر فاستبد وأخذ الملك قهرا وقسرا (١٨) الواضح أنه فى فترة سيطرة الشيرازيين وآل ابى المواهب ازدادت هجرة الفرس إلى كلوة وزنجبار ويمبا ومناطق الساحل الأخرى .

وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى وصل الى حكم كلوة أول وال عمانى . وتوطد النفوذ العمانى فى مطلع القرن السابع الهجرى على وجه التحديد عام ٦٠١ هجريه ، حيث

تمت هجرة عمانية كبيرة إلى ساحل إفريقيا الشرقى تزعمها الملوك النبهانيون والذين اضطروا لمغادرة عمان بعد انهيار دولتهم فيها حيث خلوا بجزيزة باتى وكان سكانها خليطا من العرب والفرس ونظرا لما كان يتمتع به النبهانيون من نفوذ وسطوة فقد استقبلوا من قبل أهل باتى استقبالا طيبا خاصة من السكان ذوى الأصل العمانى ،(١٩) .

وتزوج الملك النبهانى من ابنة حاكم الجزيرة السواحلى الذي يسمى إسحق والذى تنازل لابنته وصهره عن حكم الجزيرة وبذلك بدأ حكم الأسرة النبهانية لجزيرة باتى (٢٠) وقد أدى انهيار الخلافة العباسية مع نهاية العقد السادس من القرن السابع الهجرى إلى هجرة العديد من العرب والفرس واستقرارهم فى مدن الساحل الشرقى لإفريقيا وقد تزامنت سنوات هذا القرن مع الازدهار الكبير الذى شهدته المراكز الإسلامية فى الساحل الشرقى الإفريقى وقد وقف بعض الرحالة العرب المسلمين على هذا الازدهار فقد زار الرحالة المغاربى الشهير ابن بطوطة ساحل إفريقيا الشرقي فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى حيث قام برحلة من زيلع إلى مقديشو وممباسا وكلوة حيث كتب بتفصيل وإسهاب عن هذه المدن فذكر عن سلطان مقديشو "ابو بكر بن الشيخ عمر" أنه يعرف اللسان العربى بالرغم من أن لغته هى (المقديش) كما أنه ذكر إن قاضى مقديشو مصرى الأصل وهو القاضى ابن البرهان . وكتب ابن بطوطة عن عادات أهل مقديشو كما ذكر أن أهل مقديشو يصدرون إلى مصر " الثياب" المنسوبة التى لانظير لها" ويعكس وصف ابن بطوطة لمقديشو أنها بلغت درجة كبيرة من التقدم فى نظام حكمها وفى إدارتها . كما ذكر عن مدينة ممبسا أن أهلها شافعيو المذهب وأهل دين وصلاح وعفاف وعن كلوة سجل ابن بطوطة أنها تمر بفترة من الازدهار في ظل حاكمها ابى المواهب الذى كان كثير الغزو للزنوج وتربطه علاقات وثيقة بأشراف الحجاز والعراق كما ذكر ابن بطوطة نفوذ كلوة على ممبسا أثر المصاهرة التى تمت بن البيتين الحاكمين فيها . (٢١)

غير أن هذا الازدهار والنفوذ سرعان ماضمحل مع بداية القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى . حيث مزقت صراعات أفراد الأسرة الحاكمة كلوة وأضعفتها ليجد البرتغاليون الساحل لقمة سائغة فيبدأ عهد جديد فى تاريخ شرق إفريقيا وتاريخ

العرب فيه .

لسنا فى حاجة إلى التفصيل فى مسار حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية وأسبابها وأهدافها وإنما نود أن نشير فقط إلى أن الهدف الرئيسى لحركة الكشوف البرتغالية كان السيطرة علي تجارة الشرق والتي كانت خاضعة لسيطرة المسلمين بحكم سيطرتهم على الطرق الرئيسية المؤدية من الشرق إلى أوربا . وقد وصل البرتغاليون إلي ساحل إفريقيا الشرقى فى عام ١٤٩٨م لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ إفريقيا الشرقية وتاريخ جنوب الجزيرة العربية والخليج العربى استمرت حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادى

فى الفترة من ١٥٠٠م إلى ١٥٠٦م تمكن البرتغاليون من أحتلال مدن ودويلات الساحل بسهولة كبيرة نسبة لتفوقهم العسكرى وضعف تلك الدويلات (٢٢) ولما كان الهم الأساسى للبرتغاليين هو تأمين طرق التجارة الجديدة التى تم لهم اكتشافها كان لابد لهم من مد سيطرتهم إلى المدن الساحلية العمانية وبدءاً من عام ١٥٠٦م شرع البرتغاليون فى بسط سيطرتهم على المدن الساحلية العمانية وبعض المدن الساحلية فى الخليج وخليج عمان وجزيرة هرمز ووصلوا إلى جزيرة البحرين بالإضافة إلى جزيرة سوقطرة التى اتخذوا منها قاعدة لتحركاتهم البحرية فى الشواطئ الجنوبية من الجزيرة العربية (٢٣) .

وهكذا وبحلول نهاية العقد الأول من القرن السادس عشر الميلادى تمكن البرتغاليون من بسط نفوذهم على ساحل شرق إفريقيا باستثناء مقديشو وجزر القمر بالإضافة إلى سيطرتهم على النقاط الاستراتيجية فى سواحل الجزيرة العربية باستثناء عدن . فبذلك تم لهم القضاء على سيطرة العرب على تجارة أوربا مع الشرق فاستمر البرتغاليون في تشديد قبضتهم على مناطق نفوذهم الجديدة فتمكن اسطولهم بقيادة نوفودا كونها من الإستيلاء علي ممباسا عام ١٥٢٨م حيث أصبحت ولمدة خمسين عاما بعد ذلك قاعدة هامة لنشاطهم فى شرق إفريقيا (٢٤) .

فى عام ١٥٨٠م عندما آلت الامبراطورية البرتغالية لحكم اسبانيا عن طريق الوراثة

تدهورت قوة البرتغال العالمية فخضعت مناطق شرق إفريقيا وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي لمرحلة جديدة من الصراع والتنافس المحلي والعالمي .

حاول العثمانيون فى الفترة ١٥٨٥م - ١٥٨٦م - ١٥٨٨م - ١٥٨٩م - مد نفوذهم لمناطق الساحل الشرقى لإفريقيا . ثم اشتد التنافس الاوربى فظهر الهولنديون والبريطانيون فى مصالح تجارية أولا . وبالرغم من ذلك استطاع البرتغاليون لفترة طويلة تثبيت نفوذهم وقمع الحركات الوطنية المناهضة لهم انطلاقا من قلعتهم الحصينة فى ممباسا والتى شيدوها فى عام ١٥٩٥م (٢٥) ومركز قيادتهم الكبير فى جاوة كما احتفظ البرتغاليون بوجود عسكرى قوى فى شواطىء ساحل عمان والخليج العربى مستفيدين من سقوط السلطة المركزية فى عمان فأذكوا نار الصراعات القبلية فيها والتى لم تنته إلا فى عام ١٦٢٤م حينما بويع ناصر بن مرشد العربى أماما فبدأ حركة جهاد مسلح واسع ضد الوجود البرتغالى توج بالنصر فى عهد الخليفة سلطان بن سيف اليعربى حيث تم فى عهده تحرير عمان من السيطرة البرتغالية نهائيا فى عام ١٦٥٨م واكتمل بذلك تحرير كل النقاط الاستراتيجية الهامة فى الخليج ومضيق هرمز من قبضة البرتغاليين فقد سبق أن تحررت البحرين منهم فى عام ١٦٠٢م وجزيرة هرمز فى عام ١٦١٩م وجلفار (رأس الخيمة) فى عام ١٦٣٠م (٢٦) .

تابع سلطان بن سيف حملته ضد البرتغاليين فنقلها إلى شرق إفريقيا حيث تمكن العمانيون بعد ذلك من الاستيلاء على قلعة ممباسا فى عام ١٦٩٨م بعد حصار بحرى دام قرابة السنوات الثلاث وبنهاية القرن السابع عشر أجبر البرتغاليون على الانسحاب إلى الأجزاء الجنوبية من الساحل الإفريقى الشرقى (٢٧) .

فى عام ١٧١١م عين الإمام سيف بن سلطان اليعربى ناصر بن عبد الله المزروعى واليا على ممباسا (٢٨) ورغم الصراعات ظل العرب العمانيون من آل المزروعى يحكمون أهم مدن الساحل الشرقى الإفريقي حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى .

كانت صلة مراكز الساحل الإفريقى بعمان خلال هذه الفترة تقوى وتضعف بقوة

وضعف حكام عمان وفى عام ١٧٤١م سقطت الدولة - اليعربية فى عمان وبدأ عهد أسرة آل بوسعيد الذى توطد باستيلاء السيد سعيد بن سلطان على مسقط بعد فترة طويلة من الصراع بين آل بوسعيد من جهة والقواسم والسعوديين من جهة أخرى (٢٩) .

يعتبر السيد سعيد بن سلطان أعظم حكام أسرة آل بوسعيد ومؤسس الامبراطورية العمانية فى شرق إفريقيا . وبعد توطيد أركان حكمه فى عمان سرعان ما التفت السيد سعيد إلى استعادة نفوذ عمان فى شرق إفريقيا . فى الفترة من عام ١٨٢٢م وحتى عام ١٨٣٨م دخل السيد سعيد فى صراع مرير مع المزاريع الذين ظلوا كما أسلفنا يسيطرون على أجزاء هامة من الساحل الإفريقى الشرقى وتوج ذلك الصراع فى النهاية بانتصار السيد سعيد وتكوينه لإمبراطورية إفريقية شاسعة امتدت من مقديشو فى شمال الساحل الى موزمبيق بجنوبه ، كما امتدت فى داخل القارة إلى منطقة البحيرات (٣٠) . حينما بدأ السيد سعيد فى بسط نفوذه فى سواحل إفريقيا الشرقية كان العالم الأوربى يشهد تحولات كبيرة نشأ عنها توازن عالمى جديد ففى عام ١٨١٥م تمت هزيمة نابليون هزيمة نهائية فشرعت الدول الاوربية الكبرى فى وضع أسس نظام عالمى جديد بني على مبادئ الشرعية وتوازن القوى عبر ما أطلق عليه سياسة المؤتمرات وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت قد حملت عبء مواجهة نابليون لفترة تزيد عن الستة عشر عاما وكانت القوى الحاسمة فى القضاء على الأمبراطورية الفرنسية فى النهاية فإنها أصبحت مشغولة ببناء وتوطيد أركان امبراطوريتها العالمية (٣١) أكثر من أنشغالها بصراعات الدول الاوربية القارية . أما فرنسا فعلى الرغم من هزيمتها فى اوربا فإن الدول الاوربية المنتصرة اكتفت بتوقيع عقوبات محدودة عليها ولم تحاول تحجيم دورها القارى أو العالمى خاصة وأن معظم الدول الاوربية الكبرى كانت تطمع في أن ترى ملوك البربون الذين استعادوا عرش فرنسا قد أحكموا قبضتهم المطلقة علي شئون الحكم فيها . وعلى الرغم من أن فرنسا كانت منذ منتصف القرن الثامن عشر قد فقدت معظم مستعمراتها فى العالم كنتيجة لاتفاقية باريس لعام ١٧٦٣م فإنها ومع استقرار التوازن العالمى الجديد بعد مؤتمر فيرونا لعام ١٨٢٢م أصبحت تراودها الأحلام مرة ثانية بالدخول فى مجال التنافس الاستعمارى (٣٢).

الدول الاوربية الأخرى التي شاركت فى خلق التوازن العالمى الجديد وهى بروسيا والنمسا وروسيا كانت دولا قارية التوجه ولم تكن راغبة فى منافسة بريطانيا فى العالم (٣٣) بقيت الدولة الاستعمارية العجوز البرتغال تحتفظ ببعض المناطق الاستراتيجية فى الشرق الأقصى مثل جاوة وفى جنوب الساحل الشرقى الإفريقى مثل موزمبيق . كانت بريطانيا اذن سيدة عالم ماوراء البحار وقد خرجت من أحداث أوربا فى عام ١٨١٥م أكثر التفاتا وانشغالا بتوطيد أركان امبراطوريتها العالمية ولكى يتم لها ذلك كان لابد لها من الأحتفاظ بنفوذ قوي وفعال فى أهم منطقتين استراتيجيتين لازمتين لتأمين طرق الاتصالات مع الامبراطورية ، خاصة مع الهند ولم تنس بريطانيا أبدا أن أحد أهداف نابليون الهامة كان مد النفوذ الفرنسي إلي شرق إفريقيا وتهديد الطريق المؤدى إلى الهند لذلك جاءت اتفاقية عام ١٧٩٨م (العام الذى قاد فيه نابليون الحملة الفرنسية على مصر) بين بريطانيا وعمان تحجر على العمانيين إقامة علاقات أو ارتباطات مع فرنسا والدول الأوربية الأخرى (٣٤) .

لقد عانت السياسة البريطانية من الفوضى التى عاشها الخليج والساحل الشرقى الإفريقى فى الفترة التى سبقت وصول السيد سعيد للحكم وتنفس الإداريون البريطانيون فى حكومة الهندالصعداء حينما تمكن السيد سعيد من أحكام قبضته على عمان والقضاء على الفوضى فيها . غير أن السياسة البريطانية وعلى الرغم من حسن نوايا السيد سعيد تجاه بريطانيا والتى عبر عنها فى فترة مبكرة من وصوله للحكم فقد ظلت مترددة فيما يتعلق بدعم طموحات السيد سعيد الإفريقية بل أن حكومة الهند أظهرت تفضيلا واضحا وميلا للتعامل مع المزاريع الذين كانوا يسيطرون على قاعدة ممباسا الاستراتيجية بدلا من دعم سياسة السيد سعيد فى شرق إفريقيا (٣٥) ويتضح ذلك جليا من الاتفاق الذى عقدة الكابتن أوين قائد الفرقاطة البريطانية (LEVEN) مع المزاريع فى ممباسا فى السابع من فبراير عام ١٨٢٤م والذى وضعت بموجبه ميناء ممباسا وملحقاتها بما فى ذلك جزيرة بمبا والساحل المحصور بين ماندى ونهر بانغانى تحت الحماية البريطانية فى مقابل اعتراف بريطانيا بحكم أسرة المزاريع على هذه المناطق (٣٦) . وقد تجاهلت الحكومة البريطانية فى

البداية احتجاج السيد سعيد على سياساتها بل سعت لإدخال المزيد من أراضي الساحل الإفريقي الشرقي تحت حمايتها (٣٧) . ولكن سرعان ما اتضح للحكومة البريطانية أن دعم السيد سعيد أنفع وأجدى لها من دعم أسرة المزاريع المتنازعة لذلك تم فى عام ١٨٢٦م مراجعة وإعادة تقييم لسياسة بريطانيا تجاه السيد سعيد نتج عنها نقض الاتفاق الذى عقده الكابتن أوين مع المزاريع واقرار ودعم سياسة السيد سعيد بن سلطان فى الساحل الإفريقى (٣٨) .

كانت قد بدأت تلوح فى هذا الوقت بوادر تجدد التنافس الاستعمارى على الساحل الشرقى الإفريقى خاصة من قبل فرنسا وماتبقى من القواعد البرتغالية فى المنطقة (٣٩) .

إن رفع الحماية البريطانية عن مزاريع ممباسا فتح المجال أمام السيد سعيد لبسط سيطرته على ممباسا ومحمياتها وعلى الرغم من أن البريطانيين أبدوا بعض الاستعداد لدعم خطط السيد سعيد فى شرق إفريقيا فإنهم وقفوا دون أن يلغوا له الدعم المباشر ضد حكام ممباسا من المزاريع (٤٠). بل كان بعض موظفى حكومة الهند يتعاطفون مع حكام ممباسا الذين برهنوا على كل حال أنهم أعداء أقوياء للسيد سعيد وتمكنوا من إلحاق عدة هزائم بجيوشه أشهرها تلك التى أوقعوها به أمام ممباسا فى عام ١٨٢٩م (٤١) .

إن الصراع بين السيد سعيد والمزاريع وتردد بريطانيا فى اتخاذ موقف حاسم أدى الى أن يبحث السيد سعيد عن تحالفات إقليمية وعالمية تساعده فى بسط نفوذه على شرق إفريقيا فحاول أولا التحالف مع ملكة مدغشقر عرض عليها الزواج وطلب منها المساعدة العسكرية (٤٢) .

فى عام ١٨٣٣م عقد السيد سعيد اتفاقية صداقة وتجارة مع الولايات المتحدة الامريكية وهذه المعاهدة تعتبر من الأمثلة النادرة من الاتفاقات التى عقدتها الولايات المتحدة آنذاك خارج إطار نصف الكرة الغربية . وتشير بعض المصادر العمانية إلى أن السيد سعيد حاول استغلال هذه الاتفاقية التجارية مع الولايات المتحدة بالحصول على دعمها لسياسته فى شرق إفريقيا (٤٣).

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة الامريكية لم تكن آنذاك طرفاً في التنافس الاستعماري فإن معاهدة الصداقة التي عقدتها مع السيد سعيد وموافقة السيد سعيد علي استقبال قنصل امريكي عام ١٨٢٧م في زنجبار (٤٤) أثار حفيظة الدول الاستعمارية الاوربية المتنافسة خاصة بريطانيا وفرنسا اللتان بدأتا مرحلة جديدة من تنافسهما على النفوذ السياسي والتجاري في الإمبراطورية العمانية خاصة أنه وبنهاية الثلاثينات من القرن التاسع عشر كان السيد سعيد بن سلطان قد نجح في تصفية المزاريع كما نجح في بناء إمبراطورية إفريقية واسعة . وفي يونيو عام ١٨٣٩م عرضت بريطانيا على السيد سعيد عقد اتفاقية تجارية أوسع وأشمل من تلك التي عقد ها مع الولايات المتحدة الامريكية (٤٥) وأعطت الاتفاقية لبريطانيا حقوقا تجارية واسعة في الإمبراطورية العمانية ودعمت النفوذ السياسي الذي كانت بريطانيا تنعم به في المنطقة (٤٦) .

كان الفرنسيون في الوقت نفسه يسعون انطلاقا من النقاط البحرية التي كانوا يسيطرون عليها في جزيرة مدغشقر لتدعيم نفوذهم السياسي والتجاري في شرق إفريقيا وانتهزت فرنسا فرصة توقيع المعاهدة العمانية الامريكية ورغبة بريطانيا في توقيع اتفاقية تجارية مع عمان أيضا فتقدمت هي الأخرى طالبة توقيع معاهدة مماثلة مع عمان(٤٧) .

كان السيد سعيد ، فيما يبدو من الوثائق المعاصرة ، ميالا لقبول العرض الفرنسي بل كان يطمع في الاستفادة من الصراع بين الدول الاستعمارية الاوربية لخدمة مصالحة الشخصية غير أنه كان مقيد الحركة إلى حد كبير بفضل قوة الوجود والنفوذ البريطاني فبادر بعرض الطلب الفرنسي على الحكومة البريطانيةعن طريق حكومة الهند (٤٨) . أبدت حكومة الهند اعتراضها استنادا على اتفاقية عام ١٧٩٨م والتي حرمت على عمان إقامة اتفاقات مع فرنسا أو غيرها من الدول الأوربية . وكتب حاكم بومبي للسيد سعيد بأنه لاينصحه بالدخول "في أي ارتباط من النوع الذي صورتموه أو حتى بأي شكل مع الحكومة الفرنسية (٤٩)" لم يقنع الرد البريطاني السيد سعيد الذي ازدادت مخاوفه من نوايا فرنسا في شرق إفريقيا خاصة حينما تلقى في عام ١٨٤٠م إخطارا من الحكومة الفرنسية بنيتها في إرسال الطراد (LA DORDOG) في زيارة إلى زنجبار ومسقط مع التأكيد على رغبة

فرنسا فى إقامة علاقات تجارية مع ممتلكات السيد سعيد (٥٠) .

لم يكن فى وسع السيد سعيد مقاومة أو رفض رغبات فرنسا دون مساندة وحماية منافستها بريطانيا فكتب السيد سعيد للورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا شارحا موقفه من الضغوط الفرنسية وطالبا نصح بريطانيا . رد اللورد بالمرستون ناصحا للسيد سعيد بعدم الموافقة على أى مطالب لفرنسا تتناقض مع مصالح عمان ووعد بدعم بريطانيا له فى حالة طلبه ذلك (٥١) .لم يكن فى رد بالمرستون التزاما بريطانيا واضحا يطمئن له السيد سعيد لذلك كتب للورد بالمرستون مرة أخرى فى يونيو عام ١٨٤٠ طالبا التزاما بريطانيا واضحا بالدفاع عن ممتلكاته الإفريقية ضد أطماع فرنسا "هل يمكن أن تمنعوهم وتبعدوهم عنا وبالتاكيد ، أم أنكم تنصحون بالموافقة على طلباتهم" (٥١) .

لم يتلق السيد سعيد ردا شافيا من الحكومة البريطانية بل فضل البريطانيون مراقبة الموقف . فى ٣٠ يونيو ١٨٤٠ وصل الطراد الفرنسى إلى مسقط وعلى متنه الكابتن شارلز غيلان . . وراقب البريطانيون عن قرب المحادثات التجارية التى أجراها مع المسئولين العمانيين وواضح أن موقف بريطانيا وضغوطها منعت توقيع اتفاقية تجارية بين فرنسا وعمان وعاد شارلز غيلان إلى بلاده بعد أن ترك مشروع اتفاق تجارى طلب من العمانيين دراسته (٥٢) .

لم يقتنع الفرنسيون بالفشل فى مسعاهم لعقد اتفاقيه تجارية مع عمان فواصلوا ضغوطهم السياسية والعسكرية والتى توجت عام ١٨٤٤م بإرسالهم مجموعة من سفنهم الحربية فى مظاهرة عسكرية للضغط على العمانيين والبريطانيين لدفعهم للموافقة على توقيع الاتفاقية التجارية مع فرنسا . وحينما لم تستطع بريطانيا التدخل لمنع الاتفاقية العمانية الفرنسية التى وقعت فى عام ١٨٤٤م اتجهت إلى تقوية نفوذها التجارى وبالتالى نفوذها السياسى فى ممتلكات السيد سعيد فتم توقيع اتفاقيتين تجاريتين بين عمان وبريطانيا فى عامى ١٨٤٥م و١٨٤٦م (٥٣) .

كان التنافس البريطانى الفرنسى حول شرق إفريقيا بداية للصراع الاستعمارى الذى

احتد في نهاية القرن التاسع عشر وشاركت فيه معظم الدول الأوربية الكبرى . لقد استطاع السيد سعيد بن سلطان الحفاظ على إمبراطوريته الواسعة على الرغم من الضغوط التى واجهته بفضل حكمته وبراعته السياسية والتى شهد له بها جميع من تناولوا الحديث عن سيرته .

هوامش

١ - أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت ١٩٧٩، ص ١٥٩ .

٢ - نفس المصدر، ص ١٦٠ .

٣ - سلطان بن عبيد، مذكرات شخصية، الاتحاد ٢٦/١١/١٩٨٧ .

٤ - نفس المصدر

٥ - نفس المصدر .

٦ - مبارك بن علي الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسا، وزارة التراث القومي والثقافة عمان، ص ٨ – ٩

٧ - عبد المنعم عامر، عمان في أمجادها البحرية، وزارة التراث القومي والثقافة العمانية، ص ٣٩

٨ - INGRAM W.H. , ZANZIBAR ITS HISTORY AND ITS PEOPLE LONDON.- 1967, P.73.

انظر البلاذري، فتوح البلدان .

٩ - STIGAND, C.H. ,THE LAND OF ZINJ QUOTED IN ING RAM W.H.ZANZIBAR ,P. 74.
INGRAM. W.H. ZANZIBAR ,P.P 74- 75

١٠ - RIGBY, LIEUT . COL . REPORT . ON THE ZANZIBAR DOMINIONS .BOMBAY 1961,PP1 - 14

١١ - ARTHUR,S. THE. HISTORY OF KILWA ."JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY "VOL . XXV 11. 1895,PP 385 - 429

١٢ - عبد المنعم عامر، عمان في أمجادها البحرية، ص ٣٥ – ٣٦ .

١٣- INGRAM, W.H. ZANZIBAR, PP 75 - 76 .

١٤- ARTHUR,S. . THE HISTORY OF KILWA , PP 385 - 429

١٥ - "السلوة في أخبار كلوة" المؤلف مجهول، طبع ضمن كتاب، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، لمؤلفة سعيد بن علي المغيري، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان .

١٦ - نفس المصدر . ص ٣٨

١٧ - ARTHUR,S. . THE HISTORY OF KILWA , PP 385 - 429

١٨ - "السلوة في أخبار كلوة"

١٩ - جمال زكريا قاسم، "الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية" المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم ، جامعة الدول العربية ١٩٧٥، ص ٦١ -٢ ٦ .

٢٠ - نفس المصدر، ص ٦١ -٢ ٦ ،

٢١ - ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار الكتاب اللبناني ، بدون تاريخ ، ص ١٦٩ .

٢٢ ELAINE SANCEAU, INDIES ADVENTUER.LONDON 1956 PP 32 - 40 .

٢٣ ELAINE SANCEAU. INDIES ADVENTUER. P 40 .

٢٤ انظر مبارك بن علي الهنائي ، العمانيون وقلعة ممبسا . وجمال زكريا قاسم " الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية " .

٢٥ BOXER.C.R. AND CARLOS, DE AZEVEDO. FORT JESUS AND THE PORTU-GESE IN MOMBASA . 1593 - 1729 , LONDON 1960 PP 21 - 24.

٢٦ - WILSON, SIR A. THE PERSIAN GULF, LONDON. PP 154 - 155.

٢٧ - مبارك بن علي الهنائي ، العمانيون وقلعة ممبسا ص ١٢ سعيد بن علي المغيري ، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار ، وزارة التراث القومي والثقافة ، عمان ، ص١١٤ .

WENDELL, PHILPS, OMAN A HISTORY, BERIUT 1971,

(٢٨) مبارك بن علي الهنائي ، قلعة ممبسا ، ص ١٢ .

(٢٩) RIGBY, G.P., SELECTIONS FROM THE RECORDS OF THE BOMBAY GOVERNMENT, NO. LIX NEW SERIES, P 29.

أوردها سلطان بن محمد القاسمي ، تقسيم الامبراطورية العمانية ١٨٥٦ - ١٨٦٢ ، البيان ١٩٨٩

(٣٠) KRAPF, J. L. , TRAVELS, RESEARCH AND MISSIONERY LABOURS IN EAST AFRICA, LONDON 1860, PP 534- 535.

RIGBY, G.P., REPORT ON ZANZIBAR DOMINIONS, P31.

(٣١) انظر :

DAVID THOMSON, EUROPE SINCE NAPOLEON, LONDON, 1980.

TAYLOR, A. J. P., THE STRUGGLE FOR MASTERY IN EUROPE, OXFORD 1960.

(٣٢) نفس المصدر .

(٣٣) B.A, PD, VOL. 54/1049 PP 1-2.

انظر سلطان بن محمد القاسمي ، تقسيم الإمبراطورية العمانية .

(٣٤) BA, PD, VOL. 54/1049, 1839 PP. 1-2.

(٣٥) KRAPF, J.L., TRAVELS, RESEARCH AND MISSIONERY LABOURS IN EAST AFRICA, PP 530 - 531.

(٣٦) RIGBY, REPORT ON THE ZANZIBAR DOMINIONS, PP. 1-14.

(٣٧) KRAPT, J.L., TRAVELS, RESEARCH AND MISSIONARY LABOURS IN EAST AFRICA, PP. 533-4.

(٣٨) نفس المصدر ، ص ٥٣٤ – ٣٥ .

(٣٩) سالمة بنت سعيد بن سلطان ، مذكرات أميرة عربية ، مترجم ، وزارة التراث القومي والثقافة ، عمان ، ص ٣٣٠.و جمال زكريا قاسم ، "الأصول التاريخية للعلاقات الإفريقية العربية" .

(٤٠) BA, PD, NO. 54/1155, 1840/41 PP. 209-224.

انظر أيضا سلطان بن محمد القاسمي ، تقسيم الامبراطورية العمانية ١٨٥٦ – ١٨٦٢.

(٤١) مبارك بن على الهنائى ، العمانيون وقلعة ممبسا ، ص ١٥ – ١٧ .

(٤٢) BA, PD, VOL. 54/1079, 1839, PP. 102 - 106.

(٤٣) مبارك بن على الهنائي ، العمانيون وقلعة ممبسا ، ص ١٧ – ٢٠ .

(٤٤) مبارك بن على الهنائى ، العمانيون وقلعة ممبسا .و سلطان بن محمد القاسمى ، تقسيم الامبراطورية العمانية ص ٤٥ – ٤٦ .

(٤٥) SEL. R. B.G. NO. XIV, 1856 PP 244 - 245.

(٤٦) B A, PD NO. 58/501/1833 PP 501 - 511 & NO 54/1049, 1838 PP 25 - 36.

(٤٧) BA, PD. VOL. 541019, 1839 PP. 1 - 2 -.

(٤٨) نفس المصدر ، ص ١٤ ، ٢٤ – ٢٤ – ٢٥ .

(٤٩) نفس المصدر .

(٥٠) نفس المصدر .

(٥١) BA, PD. NO. 58/501/833 PP 59111 NO, 541049/1839 PP. 25 - 36,
AND B. A. P. A. P. D. NO. 54/1049/1839 PP 60 - 93 & 12 - 116
AND B A, PD VOL. TT , 77/711/1845 PP 246-47
B A, PD VOL TT, 77/711/1845 AND B. A. P. D. NO 56/1589/1844 113
AND SEL. R. P. G. NO XX+V, P 245 AND 259 .